فـي بَـني سَعْــد

كانت حليمة بنت أبي ذُؤَيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير[١] ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمسُ الرُّضعاء[٢] ، قالت: وذلك في سنة شهباء[٣] لم تُبْق لنا شيئاً ، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء[٤] ، معنا شارف[٥] لنا ، والله ما تبضُّ[٦] بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغديه (قال ابن هشام): ويقال يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفَرَج فخرجت على أتاني تلك فلقد أدَمتُ[٧] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً[٨] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منَّا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ ، فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا

---

(١) يقال إن اسمه عبد الله بن الحارث.

(٢) جمع رضيع وهو الراضع.

(٣) أي سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٤) وهي ما لونها البياض إلى الخضرة يقال حمار أقمر وأتان قمراء.

(٥) المسنة الهرمة من النوق.

(٦) تسيل قليلاً قليلاً.

(٧) أي أطلت عليهم المسافة تمهلهم عليها مأخوذ من الشيء الدائم وفي سائر الأصول «اذمت» وأذمت الركاب أعيت وتخلفت عن جماعة الإبل ولم تلحق بها يريد أنها تأخرت بالركب أي تأخر الركب بسببها.

(٨) هزالاً.

www.abulhasanalinadwi.org

نرجو المعروفَ من أبي الصبي ، فكنّا نقول يتيم ، وما عسى أن تصنع أمه وجدُّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاقَ قلتُ لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه ، قال: لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت: فذهبت إليه فأخذتُه ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره قالت: فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي ، فلما وضعتُه في حجري[١] أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[٢] فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً فبتنا بخير ليلة ، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي واللهِ يا حليمةُ؟ لقد أخذتِ نسمةً مباركةً ، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك ، قالت: ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي ياابنة أبي ذؤيب! ويحك اربَعي[٣] علينا ، أليست هذه أتانك التي كنتِ خرجتِ عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي ، فيقلن: والله إن لها لشأناً ، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ. حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :[٤] ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن ، وتروح

(١) حضن الإنسان ج حجور.
(٢) أي ممتلئة.
(٣) اربعي بنا وهوّني علينا.
(٤) جمع راعٍ.

www.abulhasanalinadwi.org

غنمي شباعاً لُبَّناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلتُه ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتية حتى كان غلاماً جَفراً[١] قالت فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلَّمنا أمه وقلت لها: لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا ، قالت: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم[٢] لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتدُّ فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ ، فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه[٣].

قالت: فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً[٤] وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له: ما لكَ يا بُني؟! قال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاني وشَقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. قالت: فرجعنا به إلى خبائنا ، قالت: وقال لي أبوه: يا حليمة لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر؟ وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثه عندك. قالت: فقلت: قد بلغ الله يا بُنيّ وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه ، فأدَّيته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك. قالت: فلم تدعني[٥] حتى أخبرتها. قالت: أفتخوفت[٦] عليه الشيطان. قالت:

---

(١) غليظاً شديداً.

(٢) الصغار من الغنم واحدتها بهمة.

(٣) يقال: سطت اللبن ، أوالدم أو غيرهما ، أسوطه: إذا ضربت بعضه ببعض ، واسم العود الذي يضرب به: السوط.

(٤) أي متغيراً وجهه لأمر أصابه.

(٥) فلم تتركني.

(٦) أي خفت.

www.abulhasanalinadwi.org

قلت: نعم. قالت: كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لِبُنَيَّ لشأناً ، أفلا أخبرك خبره. قالت: قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حَمْل قطّ كان أخفَّ عليَّ ، ولا أيسرَ منه. ووقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض رافعٌ رأسه إلى السماء. دعيه عنك ، وانطلقي راشدة[1].

* * *

(١) سيرة ابن هشام.

www.abulhasanalinadwi.org